أريد أن أعرف لأحكي بدقة عن نفسي وعن طفولتي وعن يوم الحريق الذي درج المؤرخون على الإشارة إليه «بالسبت الأسود». أتذكر الآن أنني وأنا أركض من قصر عابدين بعد إطلاق النار علينا، وجدت نفسي بشارع عدلي، أمام باب جروبي، الباب المؤدي إلى الحديقة. لماذا دخلت، لم أعد أذكر. هل كنت مع آخرين، دخلوا فدخلت، أم دخلت الحديقة منفردا لالتقط أنفاسي وأشرب كوبا من الماء. لم تكن النار مشتعلة بعد في المكان. رأيت رجالا يكسرون الطاولات والكراسي. يرفع الواحد منهم الطاولة أو الكرسي ويلقي به بعنف على الأرض، تتكسر. يحمل قائمة من القوائم الخشبية للكرسي أو القضيب الحديدي للطاولة ( طاولات صغيرة مدورة قائمة على عمود واحد من الحديد) ويدور به على زجاج الأبواب والنوافذ، يحطمها. كان صوت تحطم الزجاج يأتي أيضا من الداخل حيث الواجهات الزجاجية لعرض أصناف الحلوي يمين الداخل من شارع عبدالخالق ثروت، قوالب الجبن وبطارخ الأسماك واللحوم الباردة (الجانبون والمورتديلا واللانشون) في الجانب المقابل. بدت حركة الرجال غريبة وهم ينتقلون من طاولة إلى طاولة ومن كرسي إلى غيره ومن زجاج لزجاج ، لم تكن شعثاء، رغم انفلاتها، بل قوية ومتصلة وسريعة تقصد ما تقصد كأنها تعرف مجراها.

وقفت جانبا، ربما كنت مندهشا، لا أفهم تماما معنى ما يدور أمامي، استقبل تفاصيله ولا أعرف كيف أصنفه أو أحدد مشاعري تجاهه. أرجّح الآن أن الغضب المعيَّن في المشهد كان خارج نطاق تجربتي ومعارفي، وأن غضبي الذي دفعني إلى الخروج إلى الشارع ذلك اليوم وفي أيام سابقة مع زملائي في المدرسة كان غضبا يشبعه هتاف أو مظاهرة، وربما، إن تطاول، حجر تقذف به اليد، أو نصف ابتسامة غير مبالية ترتسم على الوجه وهو يتابع نارا مشتعلة في كازينو. ولكن الرجال الذين رأيتهم في جروبي كانوا غاضبين بشكل مختلف، عرفت ذلك لحظتها وإن لم أفهمه.